في سيرة الزمخشري جار الله

الدكتور عبد الكريم اليافي

تنشر هذا النص الذي ينوّه بسيرة العلامة الإمام الزمخشري صاحب التصانيف والرسائل المشهورة التي هي مراجع مهمة وقيّمة في علوم التراث العربي الإسلامي .

حقق النص السيد أنس خالد من العلماء الأجلاء في لينغراد بالاتحاد السوفياتي وهيأه لحولية ١٩٧٣ ونشره عام ١٩٧٩ في « الشواهد الكتابية الشرقية » لمعهد الاستشراق في أكاديمية العلوم السوفياتية . وقد زار دمشق في نيسان عام ١٩٨١ بمناسبة المؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية والاحتفال بالقرن الخامس عشر الهجري وأهدانا تلك الشواهد في جملة ماأهدانا اياه من آثاره العلمية .

وكان قد قدم بين يدي النص بالخلاصة الآتية يتحدث فيها عن والده وأعماله :

ب . ز . خالدوف (١٩٠٥ ـ ١٩٦٨) مؤسس قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة طشقند . عمل في السنوات الأخيرة من حياته في تحقيق رسالة عن سيرة محمود بن عمر الزمخشري (١٠٧٥ ـ ١١٤٤) . وهو عالم فذ من خوارزم عاش في الفترة السابقة للعصر المنغولي . كشف في المخطوطة ذات الرقم (س ٢٣٨٧) في مجموعة فرع لينغراد لمعهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية معلومات جديدة غير معروفة في المصادر الأخرى عن حياة الزمخشري . وكانت تلك المخطوطة التالفة تعتبر حينئذٍ مجهولة المؤلف . وتبيّن أخيراً أن كاتبها عبد السلام بن محمد الاندرسباني مؤلف مخطوطة « معجم السير » التي وردت الرسالة فيه .

وجدت الرسالة منقولة بين أوراق ب . ز . خالدوف فاعددنا النص العربي للنشر . ولما كانت تلك السيرة ذات أهمية لدى المستعربين ومؤرخي ثقافة آسية الوسطى استحقت أن تنشر منفصلة . وقمت مجدداً بتدقيق النص على المخطوطة الأصلية وأضفت عليه ملاحظات خاصة بالقراءات الممكنة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولاتتوافر مواد أخرى تمكّن من نقد النص . فالنسخة فريدة ، ولا يُتوقع وجود نسخ أخرى منها . ومثلُ مؤلف السيرة حين يعرضها مثلُ المخبر ينقل أخبار معاصريه المتداولة . والمصدر الوحيد الذي يستشهد به هو كتاب « الأربعون » لموفق بن أحمد المكي ، وهو مفقود في أغلب الظن .

وعلى هامش النسخة إضافتان في موضعين (الورقة ١٤١ أ و ١٤١ ب) كتبتا بخط دقيق وبحبر واضح استعصت قراءة بعض الكلمات فيها . وفي إحدى الإضافتين استشهاد بكتاب « نزهة الألباء في طبقات الأدباء » لابن الأنباري (توفي سنة ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م) . وتم تدقيق ذلك الاستشهاد على أحدث طبعة لهذا الكتاب (عطية تامر ، استكهولم ١٩٦٣)[٥] ويشار في الحواشي إلى القراءات المختلفة .

ا . ب خالدوف لينغراد تشرين الأول ١٩٧٢

أثرنا أن ننشر هذا النص في مجلة المجمع نظراً لمكانة الزمخشري المرموقة في مختلف العلوم التراثية التليدة ولقلة انتشار البحوث السوفياتية التي تدخل في ميدان التراث العربي الاسلامي في البلاد العربية . ولقد أصاب النص بعض التصحيف المطبعي فصححناه ، وتحامينا الحواشي التي لافائدة فيها كما أنا أضفنا بعض الحواشي المفسرة لما صححناه مشيرين إليها بحرف (ي) .

هذا ومن المعلوم أن أساليب ترجمة العلماء الأعلام في التراث العربي الاسلامي صنفان : علمي وأدبي . فالعلمي تدخل فيه كتابة التاريخ والسير وعلم الطبقات بأنواعها وهي كثير (طبقات الأطباء والحكماء والقراء والمحدثين والمفسرين والنحاة والشعراء والفقهاء من حنابلة وحنفية وشافعية ومالكية وشيعة وغيرهم) . وعلم الطبقات هذا مما امتازت به الحضارة العربية الاسلامية . أسلوب الكتابة في هذه الميادين من خصائصه الترسل والدقة والتنقيب والإجادة وقلة الاهتمام بالمحسنات البديعية لفظية ومعنوية وهذا هو الأسلوب الغالب .

(☆) أحدث طبعة للكتاب هي في سنة ١٩٧٠ وهي الطبعة الثانية بتحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أما الصنف الأدبي فيكلف بالسجع والزخرفة المعنوية واللفظية ومختلف أنواع البديع . وهو طور من أطوار البيان العربي نعده بين النثر والشعر يعمد إليه الكاتب والمؤلف في مقدمة كتابه وكذلك حين يريد الاحتفال بالموضوع الذي يعالجه وإبراز قدرته اللغوية والبيانية . وقد شرحنا هذا الطور المتأنق من البيان في كتابنا « دراسات فنية في الأدب العربي » ووسمناه بالفن البرّاق . وهو طور لاح في أكثر الفنون العالمية من رسم وتصوير وبناء وشعر ونثر وموسيقى . ومن الأسباب التي أدت إلى ازدهاره في حقب متطاولة من العهود العربية الاسلامية في مجال البيان غنى اللغة العربية وطواعيتها ومزاياها الكثيرة بالاضافة إلى صروف اجتماعية متعددة .

وكأن كاتب سيرة الزمخشري هذه لما كان موضوعها علماً من أعلام البيان العربي بنوعيه المترسل والمسجوع وحُجّةً في علوم التراث المؤثل أراد أن يحاكيه في بيانه المرصوف كالدرر في أطباق الذهب وفي أسجاعه المنثورة على صفحات أساس البلاغة . وقارئ النص يقدر اعجاب المؤلف بمترجَمه في ذلك العصر الحافل .

عبد الكريم اليافي

النص

(ورقة ١٣٧ ب) محمود بن عمر بن محمد ابو القاسم الزمخشري الخوارزمي الامام العلامة المشهور بفخر خوارزم رحمه الله امام الدنيا في علم الاعراب واللغة وعلم المعاني والبيان والزهد وحسن السيرة في السرّ والاعلان .

ادركتُ أيامه ودخلتُ عليه سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة وسلمتُ عليه الا أنه عاقني من القراءة عليه والاخذ منه عوائق فبقي ذلك حسرةً علي لأنه رحمه الله كان قرأ على جدّي أبي أمي شيئاً من الادب فكان يعرفني .

وحين توفّي خالي كتب الى جدي كتاب تعزية وهو بعدُ في الكتاب يعتذر من عدم المجيء من زمخشر الى اندرسبان فقال في آخره وليس على مقصوص الجَناح جُناح .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان السبب في قطع الرجل منه أنه كان صغيرا فسقط من السطح فانكسرت رجلُه وأنتنت فقطعوها منه .

وكان ابوه يؤم بقرية زمخشر فعلّمه القرآن وقال أعلّمه الخياطة لأنه صار زمناً مبتلى فقال لأبيه احملني الى البلد واتركني بها فإن الله تعالى يرزقني فحمله الى البلد وكان رزقه الله تعالى الخسطَ الحسن فرأى خطّه الشيخ اخو الاستاذ ابي الفتح بن علي بن الحارث البيّاعي رحمه الله فاستكتبه فكان يجري عليه فكفاه الله رزقه .

ودخل على الشيخ ابي علي الضرير الاديب فاخذ عنه علمه ثم جاء الشيخ ابو مضر النحوي خوارزمَ فأخذ عنه علم الاعراب ثم ترقّتْ له همّته العالية الى ان بلغ درجة من العلم في اللغة والاعراب وعلم المعاني والبيان والشعر انه ما رأى مثل نفسه ثم رزقه الله من التوفيق أن صار الامام ركن الدين محمود الاصولي والامام ابو منصور من تلامذته في علم التفسير فكانا يقرآن عليه وهو يأخذ منهما الاصول ويأخذ علم الفقه من الشيخ السديد (ورقة ١٢٨ أ) الخياطي ختن عين الائمة رحمه الله فجمع الله تعالى له مناقب العلوم كلها .

وكان رحمه الله الى الحادى والاربعين من عمره ينادم الوزراء والملوك ويمدحهم ويتنعم في الدنيا الى أن أراه تعالى رؤيا فكانت سبب انقطاعه عنهم واقباله على أمور دينه وأورد رحمه الله هذه الرؤيا في أول كتابه الموسوم بالنصائح الكبار وهي خمسون مقالة أنشأها في معاتبة النفس لما رأى تلك الرؤيا في مَرْضةٍ ناهكةٍ مرضها في مستهل شهر الله الأصم رجب من سنة ثنتي عشرة وخمسمائة وهي الحادية والأربعون من عمره وكانت سبب انابته وفيئته وتغيير حاله وهيئته وسماها عامّ المنذرة .

رأى كأنما هتف به في بعض إغفاءة الفجر وقيل له يا أبا القاسم أجل مكتوب وأمل مكذوب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ثم أخذ في الاستحلال[١] حتى كان له رسم في مَرْج يوسف الموقوف على العلماء فأخذ الذهب ومضى اليه واستحلّ من الناس ودفع اليهم ما قبلوا منه وابرؤوه عن البعض ثم اخذ في الانزواء والتصنيف .

فحكي عن الشيخ القاضيني رحمه الله وقال دخلت عليه يوماً وهو بين الكتب جالس يُصنِّف فقلت له مرحبا بهذه السيرة الحسنة التي انت عليها ونعم الجليس هذه الكتب التي أنت بينها فقال لي الشيخ هذه الكتب والتصانيف التي أصنفها قشور واللبّ هو التقوى قال فتعجبت من متانة كلامه رحمه الله .

ثم لما اعتزل الناس كان الملك خوارزمشاه أتز بن محمد يزوره فزاره في بعض الأيام بعد قدومه من مجاورة بيت الله الحرام فمكث عنده حتى صلى خلفه العصر فوضع يده على كتف خوارزمشاه وقال له:ما أحسن المحراب في المحراب[٢]

وقيل له قد وخطك الشيب فقال رحمه الله شيبتني مطالعة الاسفار ومتابعة الاسفار[٣] .

وصبر رحمه الله في جواره على القوت النزير لمكة وحرّها حتى اني سمعت انه غلا السعر بمكة فما كانوا يجدون بها الا الأرزن[٤] السود وكان قوته كل يوم مع جاريته تُماضر اربعة أقراص صغار له قرصان ولها قرصان وكان يقنع بقرص واحد ويتصدق بقرص .

وكانت له مروءة عالية حتى إن الشيخ أبا الفتح الضرير مدحه بقصيدة وكان يقول جائزتي من هذه القصيدة أن يستمع اليها فأحسن الاصغاء اليها واجازه بعشرة دنانير طوارح[٥] .

---

(١) الاستحلال : يقال استحل فلاناً الشيء ساله ان يحله إياه (ي)

(٢) المحراب الأول بمعنى المجلس والثاني محراب المسجد (ي)

(٣) في الهامش شرح لهذين اللفظين :

الأول جمع سِفر بكسر الاول وسكون الوسط وهو الكتاب ، والثاني جمع سَفَر بفتح الاول والوسط وأصل تركيبها يدل على الظهور والانكشاف قيل الاول فعل بمعنى مفعول صح .

(٤) الأرزن لفظ فارسي وهو نوع من الذرة او الدخن . sorghum vulgare (ي)

(٥) طوايح ؟ (ربما كان معنى طوارح واحداً تلو آخر ي)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وحين قرّب وفاته فرق قدر مائتي دينار بيده على زهاد أصحابه وعلمائهم ومساترك الا شيئاً يسيراً ولم يكن له عقب وكذا السادات لاعقب لهم كاحنف بن قيس والحسن البصري رحمه الله وله قطعة غرّاء في هذا المعنى اوردتها في بعض مجموعاتي .(ورقة ١٣٨ ب)

تمنّوا على الله ابنَ أنثى كهيئتي
مطلاً على هام العُلى والمناقبِ
وقالوا لو ان الله ينثر صُلبَه
بفرسان صدق كالنجوم الثواقب
ألا فأقِلوا من تَمَنيكمُ فلي
فريقان من نسل كريما المناصب
فريق تراه صامتا وهو ناطق
بما الخلق فيه بين راوٍ وكاتب
وآخر جوّاب البلاد يذيع في
مشارقها أسرارَه والمغارب
وحسبي تصانيفي وحسبي رواتها
بنين بهم سيقت الي مطالبي
إذا الابُ لم يأمَنْ من ابنٍ عقوقه
ولاأن يعُق الابن بعض النوائب
فإنيَ منهم آمن وعليهم
واعقابَهم أرجوهم للعواقب

ولقد سمعت على شيخنا الصدر الأجل اخطب الخطباء موفق بن احمد المكي ابي المؤيد رحمه الله صفته حين وصفه بأحسن بيان في كتابه الموسوم بالاربعين حين روى عنه في باب الصبر وافتتح الباب بذكره فقال رحمها الله : شيخي في باب الصبر جار الله العلامة شيخ العرب والعجم فخر خوارزم ابو القاسم محمود بن عمر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الزمخشري برّد الله مضجعه ويسر الى رضوانه مرجعه وهو أستاذي في بضاعتي المُزجاة في فن النحو والادب ولطائف كلام العرب .

وزمخشر قرية من قرى خوارزم وهي مولده غير أنه رحمه الله فارقها في صباه وجعل جرجانية خوارزم مُبَوأه ومثواه ولقد ترقت له الهمة إلى غاية لامطمح للأبصار وراءها وحرّكته الحمية الحَرِيَّة لتسنّم قُلّة من الفضل لا مُرتقى فوقها .

ومن نُفاثات الأمير الامام الاجل الشريف سعد الدين ذي المناقب ابي الحسن علي بن عيسى بن حمزة بن وهاس الحسني المكي صديقه فيه

جميع قرى الدنيا سوى القرية التي
تبوّأها دارا فداءُ زمخشرا
وأحْرِ بأن تُزْهَى زمخشرُ بامرىءٍ
إذا عُدَّ في اسْد الشَّرَى زَمَخَ الشرى

وقد صدق فيما قال فان خوارزم كانت قبل فخرها مَزْهُوَّة بابي بكرها صادقة في زهوها سنّ بَكْرها مباهية به مباهاة الشمطاء ببِكْرها تعده لغرائبه من رغائبها وتعُده لرغائبه من عِرابها وتُفضّله أرضه على فضلائها تفضيل السماء المشتري على سائر كواكبها وتدّخره واسطة عجائبها وما أخطأت خوارزم في اعتقادها فيه وإفاضةِ مائِع من النظم والنثر من فلق فيه اذ الخوارزمي دَوّخ أطوارَ العراق ونقب في أقطار الشام وتقلب في آفاق خراسان وطاف في أطراف سجستان ودارَ في أمصار مازندران وتوغّل في كُوَر فارس واستوطن بلاد الجبال فلم يجترئ أحد من بلغائها على مجاراته في ميدان بيانه ولم تتجاسر نسمة من فصحائها على التحكك بجذيل تبيانه ولم يَنْبِر مُفلق من قُطامها لمساجلته إذا أخذ في طي كلامه او نشره ولم يدرك شاعر أو كاتب من سكّانها شأوَ نظمه أو نثره (ورقة ١٣٨ أ) ودع عنك ذكر تهذّيه[٦] ودرايته ولا تسأل عن حفظه وروايته ان احتدم للدراية خلف اهلها

---

(٦) في أعلى الهامش : تهدّى بمعنى اهتدى .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في سفوح الجبال واستخلص لنفسه مرابضَ الأوعال وان خاض في الرواية خاض في تيار خُضارب وغادر الرواة في الأوشال ولولا روايته لما تهيأ للثعالبي تأليف يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر إذ هو مشحون بيتامى روايته محلّى مقرط مشّنف مكحل بحكاياته ألا ترى الى هجاء البديع الهمذاني اياه حين رام من هجائه اياه أقصاه وأتمه وأوفاه بعد ما طوى في ثراه .

مـــات ابـــو بكر وكان امرءاً ادهم في آدابـــــــــــه الغرّ
ولم يكن حرا ولكنـــــــــــه كان أميرالمنطـــــــــــق الحرّ

كيف سلّم له إمارة المنطق الحرّ وقت غضه من قدره وكيف اعترف له بالآداب الغرّ زمان إزرائه بخطره ولو وجد مساغا الى اخمال ذكره او علم حيلة في دفن نظمه ونثره او عرف سبيلا إلى انكار سبقه في حلبة البلغاء او رأى مجالا في محو اسمه عن ديوان الفضلاء لبَذَلَ في ذلك دَمَ وريده ولَجاد على ذلك بطارفه وتليده ولكن لم يتهيأ له . ما بالراح اخفاء ضياء الصباح اذ جاء به فالق الاصباح وخالق مثل الخوارزمي في الاشباح .

ثم لما تَجلت[٧] خوارزم فخرها وجَلَتْ خَبْرها وبحرها أخلصت له حِجْرها وبوّأته صدرها وولت ابا بكر ظهرها نعم حال الخوارزمي في فنّه الوقاد الى جنب نور العلاّمة هُوَيْلة[٨] وبحره الفياض بالنسبة الى جدوله دُجَيْلة[٩] هذا بَوْن مابينهما في علم الأدب وحفظ لغات العرب ووراء ذلك لفخر خوارزم رحمه الله في علم النحو وعلم المعاني والبيان وحل مشكلات القرآن خصائص لاتحصى وخواص لاتُعَدّ ولاتستقصى لم يحطب الخوارزمي في حبالها ولم يَرِشْ شيئاً من نبالها ولم يستظل ولو ساعة بظلالها وعندي أنّ نظم الخوارزمي الى قياس نظمه الحجازي كالخزف الى

---

(٧) جاء تحت السطر : ولدت (وهي معنى نجلت ي) .

(٨) تصغير هالة (ي) .

(٩) تصغير دجلة (ي) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

العقيان وان نثره الى جنب نثره كالهجين الى جنب الهجان وانى يدرك شاو من دعا جوامح القصائد فركض في ميدانه وأومأ الى شمس الرسائل فأتَيْنَ مسخرات لبيانه ومج اليه كتاب سيبويه أسراره واهدى لشعره جرير نسيبه والفرزدق افتخاره وخدمه ابن العميد وعبد الحميد بديوانَيْ نثرهما مع علو شأنها وفخامة قدرهما ولفظت اليه الخطابة افلاذ كبدها وذللت له البلاغة صعاب شُرُدها فديوان نظمه نُجَع البصائر ونُزَهُ الأبصار وديوان نثره مجاني الخواطر ورياض الافكار فهما روضة وغدير للرُواد والوُراد وهو ومرتاده خير مرتادٍ ومرتاد[١٠] قد القحَ بلطائفه القرائح الحائلة وأطلع من سماء الفضل الكواكب الآفلة حتى امتدت في خوارزم بميامين فضله على عراص الادب (ورقة ١٣٩ ب) ظلال الاقبال وسبغت ببركات علمه لاهله اودية الجلال ونشأت في ايامه من تلامذته فحولة الرجال وازدحمت في منتداه الافاضل ومثلت بين يديه الأماثل ومن نفاثاتي في مرثيته :

قد جاور الله جار الله حين رأى
دهراً جهولا يبيع النبع[١١] بالغَرَب[١٢]
ان القلاص وجُرد الخيل قد عطفت
وأنضيت نحوه بالوخد والخبب
فالنهْدُ لايشتكي من بعده ابداً
ركض العجول وغض[١٣] السرج واللبب

(١٠) مطلوب . (مرتاد يقع على اسم الفاعل وعلى اسم المفعول وهما المرادان هنا أي خير طالب ومطلوب - ي) .

(١١) شجر تتخذ منه القسي ومن أغصانه السهام (ي) .

(١٢) شجر آخر أقل قساوة (ي) .

(١٣) يجوز أن يكون عضّ (ي) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والعَوْد في روضةٍ غنّاء غازلها
وطفاء تبسم عن ماءٍ وعن عُشب
رد الخشاش على الحادي وناولَه
وضِينَه وارتمى بالنِسع والقتب
عنّت له العرب العربا ء قاطبةً
في البدو ماضره أن ليس بالعربي
تُزري اذا هدرت يوما شقاشقه
بماضِغ الشيح شراب من القلب[١٤]
قد ذاب جامدُ دمعي في رزيته
هيهات قل وفائي حين لم أذُب
أجابني الدمع لما جئت أسأله
عن مشكلات قد اعتاصت فلم تُجَب
رحا الفضائل مذ قد سار واقفةٌ
وهل تدور رحا يوما بلا قطب

والقصيدة طويلة وانما نتفت منها مايليق إيراده بهذا الموضع ولن نصفه أبلغ مما وصف به نفسه في شاكرته المشتملة على مقاماته التي جلت عن الاحصاء المنطوية على خصائصه التي خدمت لسان الاستقصاء اولها :

سقى الله بطن الايك أوطف واكفا
يُجلل بطن الايك أزرق وارفا
أزاهيره تُزهى الرّبى برفيفها
كأن الرّبى يسحبن منه رفارفا

فطالعها ان اردت الدخول في مطارف البراعة واحفظها ان رُمْت ان تتجمل بزخارف البراعة ودونك تصانيفه التي تؤذنك بعلو مرتبته وتعرفك سمو منزلته

(١٤) جمع قليب وهو البئر (ي) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كالكشاف عن حقائق التنزيل الناطق عن دقائق التأويل الذي ان طالعته وجدت ثمرات نكته الغراب امثال تمرات[١٥] الغُراب قد نام عنها المفسرون وتيقظ لها هذا الالمعي الذي نُسِيَ له[١٦] ابو عبيدة والاصمعي وكالفائق في ايضاح ما التبس من الاخبار وكشف ما اشكل من الآثار وكالمفصل في صنعة الاعراب المشتمل مع صغر حجمه على مسائل الكتاب وكأساس البلاغة المنطوي على كلام العرب الفارق بين الحقيقة والمجاز المقتضب وكالمستقصى في الامثال الذي عجز عن ذكر مَداه اسنة الرجال وكالقسطاس في العروض وكما وكما .

ثم انه قدس الله روحه العزيز حلّى هذه المحاسن الثواقب وجمّل هذه المناقب بتقمصه من الورع بلأمة لاتحيك فيها سهام الشيطان [واطراحه الدنيا][١٧] وزخارفها لعيون الهوان وقلة اكتراثه (ورقة ١٤٠ أ) لها اقبلت أو ادبرت ولَيّ اخادعه اظلمت او اسفرت ومُثولِه في المحراب اذا الليل ارخى سدول ظَلمائه وتدريسه العلم اذا النهار مدّ رواق ضيائه ووقفته بعرفات سبع مرات وحطّ رحله خمس سنين في البلد الحرام وتصانيفه بين زمزم والمقام لايستفزّه الى مسقط رأسه ادكار العيش الرغد ولايقلقه ضنك العيش بمكة في طلب مرضاة الواحد الصمد وفيه يقول الشريف رحمها الله .

أتى حرم الله العظيم مجـــــــــــــاوراً
فللـــــه مـــــا أدنت جمـــــال وأينـــق
صليب قنـــاة الـــدين في الله جـــاهـــدا
اذا خـــار عـــزمٌ او تحلـــل مـــوثـــق
بـلا الـزهـــدُ منـــه والتـورعُ صـــاحبـــا
مصفـــق شرب صفـــوه مـــا يُرَنّـــق

(١٥) يقال وجد تمرة الغراب وذلك أنه يتتبع أجود التمر فينتقيه . التاج (ت)

(١٦) مضافة تحت السطر .

(١٧) الزيادة من أجل اتساق العبارة (ت) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بـــــه مَحَت الايـــــام كل اســـــاءةٍ
جَنَتْهـــا ولَمّ الـــدهر مـــاكان يفتِـــق

وحق الاستاذ استنفاد الطاقة في ذكر فضائله على رؤوس الاشهاد واستغراق الوسع في شرح فواضله على اعناق الاعواد ولكن مالي يدان بنشر عُشْر مأوتي علم علمه ولالسان يفي ببيان شيء مما اختصّ منه طود أناته وحلمه ومن بذل مجهود المقلّ فقد اعتذر قال رحمه الله ومن مقالاتي فيه رحمه الله :

اعـلاّمـة الـدنيـا وواحـدهـا الـذي
زمتَ حَرونَ العلم كرهـاً فقُـدْتَـه
هـل العلم إلا بعض مـا قـد لهجتَـه
هـل الـدين الاكلّ مـا قـد رسمتَـه
وقُـدّر كل الـدين في العلم كُلِـه
وقيـل لـه كن انت شخصـا فكنتَـه
اذا قيـل هـل في عـالم الله واحـد
غـدا عـالَما في كل علم فـانت هـو
الا هكـذا فليبلـغ المرء جـاهَـه
رويـدكم أنّى لكم ذاك فـانتهـوا

تمت صفة اخطب الخطباء رحمها الله وجزاهما عن الاسلام خيرا ورحمني معهما . وانشدني الامام ابو المعالي عبد الله بن علي الحاكمي الزمخشري رحمه الله للشريف علي بن عيسى المكي في جار الله العلامة فخر خوارزم حين ودعه راجعا الى خوارزم .

لقـد شجني في أم رأسي عـزمـه
فـاصبحتُ من عـزم الامـام أميما
فـأعْجِبْ بهـا حـالا ولم يشحـط النوى
ولم تـك الا ولثـة وشميمـا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

تمنيتُ لـــو لم ألقـــه وجهلتُـــه
فلم يَخشَ قلبي بـــالفراق كلـــومـــا
فـــديت امرءاً يخشـــو الفـــواد فراقُـــه
كلـومـا ولُقيـــاه حَشَتْـــه علـومـا
وكائِنْ رأينـــــا من ذوي العلم والتُّقى
رجـالا أنـاخـوا بـالحجـاز قـدومـا
فـاخْمَـد استـاذ الـزمـان ضيـاءَهم
وكان وكانـوا شـارقـاً ونجـومـا

وحدثني الامام الاستاذ الجامع الكامل ابو صالح عبد الرحيم بن عمر الترجماني جزاه الله عني خيرا وكان قرأ على فخر خوارزم الكشاف في سبع سنين واستفاد (ورقة ١٤٠ ب) منه اشياء وقال حدثني الامام سعيد بن عبد الله الجلالي المُعبّر. وقال:دخل عليّ الشيخ الامام عتيق بن عبد العزيز النيسابوري وكان اماما في حفظ اللغة والعروض والنظم وقال جرى اليوم في مجلس الامام الاجل جار الله العلامة خطأ فينبغي أن تعلمه فقلت له لابدَّ من الكتاب فجاء به فحملته اليه وعرضته عليه فاحسن الانصاف وقال نعم هو كما قال وكان في الصحن عدلان من الدقيق وزن كل واحد منهما ثلاثمائة منّ فأمرني ان احملها الى الشيخ عتيق وقال كما اختارك لهذا اخترتك لهذا فحملتها اليه قال الشيخ عبد الرحيم والواحد في زمانه اذا وُقف على الخطأ يمتلئ غيظا وحقدا ويتشمر للانتقام ويعده استخفافا فما أبين الفرق بينهما وياله من سيرة ثم ياله من سيرة رحمه الله .

وسمعت واحدا من شركائي انه كان يقرأ أساس البلاغة على فخر خوارزم وكان الشيخ عتيق يسمعه معنا فجاء عذر المطر فتخلف الشيخ عتيق فقال فخر خوارزم لاتقرؤوا حتى يجيءَ فحسبي جائزة أن يسمعه عليّ الشيخ عتيق وكنت أسمع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الامام القاضيني في قصصه كثيرا مايتمثل ببيت فخر خوارزم رحمها الله[١٨] ثم يقول خرّبت خرّبت . قلت ومما رثى به استاذه ابا مضر رحمه الله :

وقائلة ما هذه الدُّرر التي
تساقطها عيناك سمطين سمطين
فقلت هي الدرّ التي قد حشا بها
ابو مضرٍ أذنى تساقط من عيني

وله ايضا في مرثيته[١٩]:

أيا طالبَ الدنيا وتاركاً الاخرى
ستعلم بعد اليوم ايها أحرى
ألم يقرعوا بالحق سمعك قل بلى
وذُكّرتَ بالآيات لو تنفع الذكرى
أما وقّر الطيشَ الذي فيك واعظ
كانك في أذنيك وقرٌ ولا وَقرا
أمن حجر صلد فؤادك قسوة
ام الله لم يودعك لُبّا ولا حِجرا
وما زال موت المرء يُخْرب داره
وموت فريد العصر قد خرّب العَصْرا
وصكّ بمثل الصخر سمعي نَعِيّه
فشُبّهتُ بالخنساء اذ فقدت صخرا

---

(١٨) جاء في الهامش :

خرّبتْ هذا العمر غير بقيةٍ ولعلني لكِ يابقيةَ عامرُ

فكان يقول وهل عَمر أحدٌ كعمارة فخر خوارزم.صح .

(١٩) مكتوبة في الهامش .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قلت:وله عجائب في ديوان نظمه ونثره من أرادها رجع الى ديوانه .

وقال الشيخ الامام الاستاذ عبد الرحيم الترجماني قد بلغ من سمعت منهم وقرأت عليهم اربعين شيخا أو أكثر فما رأيت مثل فخر خوارزم في الشفقة على التلامذة والورع الصادق والصلابة في الدين مع كمال النصيحة في الله والمروّة العالية رحمه الله رحمة واسعة . قلت ولقد عظمه الله تعالى وأعزه حين أعزّ أمره ان مثل ركن الدين محمود ومثل شمس الأئمة ابي الفرج المكي رئيس أئمة خوارزم والشيخ أبي منصور صاحب الاصول وواعظ أهل خوارزم كانوا يجثون بين يديه وكانوا يعظمون مجلسه تعظيما جلّ عن وصفه البيان حتى إن شمس الائمة ينزع خفه في الدهليز ويمشي الى الصفّة (ورقة ١٤١ أ) حافيا وما كان يمكنهم أن يقرعوا بابه .

فحكى لي أحد شركائي أنّ واحدا من نوّاب شمس الائمة كان يلقب بالفقيه عمر عرضت له حاجة فجاء الى باب فخر خوارزم رحمه الله وبعث اليه بلسان الخادم ان عمر الفقيه بالباب وكان فخر خوارزم مشغولا فما أذن له فبعث اليه الفقيه وقال اسمي عمر وعمر لاينصرف فقال فخر خوارزم للخادم قل له نعم اذا كان معرفة لاينصرف فاما اذا كان نكرة ينصرف ونحن لانعرفك فانصرف .

وسمعت هذه الحكاية من أخطب الخطباء رحمه الله انه حين قال عمر لاينصرف اذن له بالدخول والله اعلم .

وكان رحمه الله صنف تصانيف كثيرة سوى ماذكر اخطب الخطباء منها مقدمة الادب والانموذج في النحو وكتاب ربيع الابرار وكتاب متشابه الاسماء في علم الحديث وكتاب فصوص الاخبار والزيادات على الفصوص والمختصر من موافقة الصحابة وهو اول من احيا علم الحديث بخوارزم وعمر رسومه وجاء بكتب الحديث من العراق وحث الناس على ذلك وانتشر منه هذا العلم ثم بعده اخطب الخطباء رحمهما الله رحمة واسعة ورحمني معهما[٢٠] .

---

(٢٠) حاشية على هامش الورقة ١٤١ أ :وكتاب أسماء الأودية والجبال وكتاب المفرد والمؤلف في النحو .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وسمعت اخطب الخطباء المكي رحمه الله يحكي عن فخر خوارزم رحمه الله قال قلت لغلامي بمكة وهو صغير جئني بالمِفْعَلَتَيْن ثم أطرق ساعة ثم قال كانك تريد المقلمة والمحبرة .

قال رحمه الله وقد انتشرت أجزائي وكتبي ليلة من الليالي فقال لي أكْفِتها لك ياسيدي من قوله والارض كفاتا .

وقال وقد امرته يوما أن يضع القصعة المملوءة مرقة على الأرض فقال لي المكان مُسْتَصغِي[٢١] .

قال وسقطت ابرة من امرأة بمكة وكانت تطلبها فقال لها ابنها وهو صغير يأأمي كانت مزمومة أم غير مزمومة .

حدثني الامام الزاهد صديقي محمد الحاج وقد زجّى عمره في صحبة فخر خوارزم وكان رفيقه في رجوعه عن مكة ولزمه حتى توفي رحمه الله وكان فخر خوارزم يقدّمه في شهر رمضان فيصلي خلفه التراويح .

وقد اكرمني هذا الشيخ فسمع مني الفردوس في صحبة الشيخ الامام الكبير القاضيني رحمه الله وسمع من مصنفاتي ايضا عدةً جزاه الله عني خيراً .

حدثني فقال كان فخر خوارزم اذا صلى الغداة يخفض رأسه فيدعو بدعوات ثم يأخذ يبكي فقلت له يوما ماهذا البكاء الذي يعرض لك فقال لي او ماتعرف مابين ايدينا من الاهوال والشدائد فلا ندري بم نقطعها .

وحدثني انه دفع الى اصحابه الذين كانوا يقرؤون عليه أجزاءً ليكتبوها له فكتبوها ثم بعد مدة قال لي هل تعرف فلانا صاحبنا من سكة جنكار قلت نعم. فقال:خذ هذا القدر من الذهب فادفعه اليه فامتنع من أخذه وقال أنا تبرعت بذلك وكذا جميع الاصحاب فقال فخر خوارزم نعم تبرّعت ولكن اصحابك لم يتخذوا الكتابة حرفةً وانت اتخذتها حرفةً فلا استجيز ان احرمك ثمرةَ حرفتك والحّ عليه حتى أخذه (ورقة ١٤١ ب) رحمها الله ورحمنا معهما .

---

(٢١) أي مائل وإثبات الياء جائز (ي) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وحدثني ايضا قال قال لي يوماً هل تعرف فلانا الذهّاب قلت نعم قال جئني به قلت ايش تصنع به قال بعت منه جارية وقد كنت قلت لتلك الجارية يوما من الأيام لاابيعك فلعلها تأذّت ببيعي اياها فجئت بالرجل فقال له رحمه الله أتبيعني جاريتك واعتقها وازوجها منك فقال الرجل بل أهبها منك فقال بل تبيعني قباعها منه ان شاء الله باربعين دينارا وسلّمها اليه فاعتقها رحمه الله والبسها دست ثياب وزوجها من ذلك الرجل . كان رحمه الله احتياطه الى هذا المقدار أن لاتخالف لفظة جرت على لسانه وان كان معذورا شرعا .

وقدم الى بغداد للحج فجاءه شيخنا الشريف ابن الشجري مهنئا له بقدومه .

فلما جالسه أنشد الشريف :

كانت مساءلة الركبان تخبرني عن احمد بن دؤاد اطيب الخَبَرِ
حتى التقينا فلا والله ما سمعتْ أُذني بأحسن مما قد رأى بَصَري

وانشده ايضا :

واستكبر الأخبار قبل لقائه فلما التقينا صغّر الخَبَرَ الخُبْر

واثنى عليه ولم ينطق الزمخشري حتى فرغ الشريف من كلامه فلما فرغ شكر الشريف وعظمه وتصاغر له وقال ان زيد الخيل دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فحين بصّر بالنبي صلى الله عليه وسلم رفع صوته بالشهادة لله فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم يا زيد الخيل كل رجل وُصف لي وجدته دون الصفة الا انت فانك فوق ماوُصفْتَ . وكذلك الشريف . ودعا له واثنى عليه قال فعجب الحاضرون من كلامهما لان الخبر كان أليق بالشريف والشعر كان أليق بالزمخشري .

وحكى ابو عمرو عامر بن السماري[٢٢] قال وُلد خالي[٢٣] فخر خوارزم في زمخشر يوم الاربعاء السابع والعشرين من رجب سنة سبع وستين

---

(٢٢) في الطبعة التي حققها الدكتور السامرائي : السمسار (ي) .

(٢٣) فيها أيضاً : في خوارزم بزمخشر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

واربعمائة وتوفي بقصبة خوارزم ليلة عرفة من سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ـ من كتاب نزهة الالباء في طبقات الادباء تصنيف[٢٤] . . . كمال الدين عبد الرحمن بن / محمد بن عبيد الله بن ابي / سعيد الانباري النحوي .

حاشية على هامش الورقة (١٤١ ب)

مات ركن الدين محمود الاصولي بن عبيد الله الملاحمي . . . ليلة الاحد السابع عشر من شهر ربيع الاول سنة ست وثلاثين وخمسمائة كان معروفا بالكلام فريد دهره في هذه الصنعة وله تصانيف كثيرة في هذا الباب مثل المعتمد في اصول الدين وهو اربع مجلّدات والنافق في الاصول وتحفة المتكلمين في الرد على الفلاسفة من طالعها او غيرها من مصنفاته عرف[٢٥] . . . وكان ورعا جدا ومن نفاثات صاحب الكشاف في مرثيته :

مـــا بـــال خـورزم كانت امس مشرقـــة
واليـــوم ارجـــاؤهـــا مغبرّة ســـود
لم يبـق من نـور اهـل العـدل[٢٦] بـاقيـة
لمـــا تُـــوّفي ركن الـــدين محمـــود[٢٧]

---

(٢٤) الكلمة المطموسة بعد تصنيف : أبي البركات وهو لقب الأنباري (ي) .

(٢٥) ربما كان اللفظ المطموس : فضله (ي) .

(٢٦) أهل العدل هنا هم المعتزلة (ي) .

(٢٧) انظر ديوانه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net